PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(9): 665-679
ISSN:1553-6939

The historical incident and the problematic of causal explanation -An approach to the philosophy of history-

Dr. Ahmed Badji[1]
[1]University Mouloud Mammeri of Tizi-Ouzou (Algeria).
The E-mail Author: ahmed.badji@ummto.dz

Received: 03/2024 **Published: 09/2024**

Abstract:

The philosophy of history interested in the science of history but its interest does not pour into the field of the interest in history as a science focuses just in studying past incidents but as a science has a curriculum and a subject and purpose. So, it is an attempt to philosophy its definition and its subject and the curriculums used in its studies. And the purpose of our study of it is an analytical epistemological attempt at the level of the definition and the subject and the used curriculum.

In our article, we try to focus on the science of history as a science of history as a science that does met fall outside the scope of humanities. It studies a past related to human incidents. And because these incidents are past incidents and related to humans, it releases many difficulties in our study of it on the level of the pragmatist definition and on the level of the curriculum used in its study. In order for our study to be correct, we used different curriculums: the analysis, the criticism, with the help of the approach sometimes, especially in our definition of it, and the curriculums that are used in studying its proceeding.

Keywords: History, Historian, Event, Causality, Inevitability, Curriculum.

الواقعة التاريخية وإشكالية التفسير السببي- مقاربة في فلسفة التاريخ-

د .أحمد باجي[1]
[1]جامعة مولود معمري– تيزي وزو) الجزائر.(

الملخص :

تهتم فلسفة التاريخ بعلم التاريخ لكن اهتمامها لا يصب في مجال الاهتمام به من حيث هو علم يهتم بدراسة الحوادث الماضية فقط، وإنما من حيث هو علم له منهج وموضوع وغاية، وبالتالي هي محاولة لفلسفة تعريفه وموضوعه، والمناهج المستخدمة في دراساته، والغاية من دراساتنا له، وبتعبير أدق هي محاولة ابستيمولوجية تحليلية على مستوى التعريف والموضوع والمنهج المستخدم.

حاولنا التركيز في مقالنا هذا على كون علم التاريخ لا يخرج عن دائرة العلوم الإنسانية، يدرس ماض متعلق بحوادث الإنسان، وبما أن هذه الحوادث هي حوادث ماضية ومتعلقة بالإنسان، تفرز صعوبات جمّة في دراستنا لها على مستوى التعريف البراديغمي وعلى مستوى المنهج المستعمل في دراستها، ومن اجل أن تستقيم دراستنا هذه؛ استخدمنا مناهج متعددة، التحليل، النقد، مع الاستعانة بالمقارنة في بعض الأحيان، خاصة في تعريفنا له، وفي المناهج المستخدمة في دراسة وقائعه.

كلمات مفتاحية: تاريخ، مؤرخ، حدث .سببية، حتمية، منهج .

المقدّمة :

ازداد الاهتمام بفلسفة التاريخ بداية من القرن التاسع عشر خاصة باكتساح النزعة العلمية لجميع المواضيع المطروحة على المستوى المعرفي، هذه النزعة أتت كنتيجة حتمية لتطبيق المنهج التجريبي في ظواهر الفيزياء الطبيعية، فحققت بذلك قفزة نوعية في نتائجها من حيث اليقين والدقة العلمية، هذا ما أدى

بعلماء الإنسانيات ولا سيما المؤرخون التوسم خيرا في تلك النزعة العلمية ومنهجها التجريبي، فبذلوا جهودا عظيمة في سبيل التأسيس لمناهج استقرائية للعلوم الإنسانية تماهي المنهج التجريبي، لكن هذه المناهج طرحت مشاكل ابستيمولوجية وفجوات علمية كبيرة باعتبار أن الظاهرة الإنسانية لها ميزتها وخصوصيتها فهي ظاهرة صادرة عن إنسان عن ذات، غير ثابتة، متغيرة باستمرار، غير منتظمة في حدوثها، وبالتالي لا يمكن اخفضاها للتجربة العلمية، وعليه لا يمكننا تكميمها أو تعميم نتائجها فهي كيفية في جميع تمظهراتها.

ينتمي التاريخ إلى دائرة العلوم الإنسانية، موضوعه الحوادث الماضية المرتبطة بحياة البشر، وباعتباره علما-حتى وان لم يتفق على علميته-له منهج، لكن منهجه ليس محل اتفاق الجميع، ما طرح مسألة التعدد في مناهجه، وبطبيعة الحال راجع هذا إلى صعوبة دراسة موضوعه المرتبط بحدث ماض لا يتكرر .هذا ما طرح صعوبة جمة على مستوى تعريفه، وتصنيفه، ومنهجه.

إن التعارض الذي نجده بين فلاسفة التاريخ في أطروحاتهم الفلسفية الابستيمولوجية خاصة فيما يخص فلسفة علم التاريخ يعود غي مجله إلى صعوبة دراسة موضوع التاريخ الذي مرتبط من جهة بماضي الانسان ومن جهة ثانية صادر عن الإنسان ومن جهة ثالثة الدارس له الإنسان، هذا ما يطرح صعوبة الفصل بين الموضوع والذات.

إن دور المؤرخ لا يتوقف عند حدود ترتيب وتنظيم وتسجيل تواريخ الوقائع التاريخية، وإنما يتعدى ذلك إلى التعليل والتفسير و التأويل، وهذا ما طرح إشكالية ابستمولوجية على مستوى الدراسات التاريخية.

الإشكالية :هناك الكثير من الدراسات التي اهتمت بفلسفة التاريخ ومن جوانب متعددة إلا أننا نطمح في دراساتنا هذه أن نعالج إشكالية قل ما تناولها الدارسيون والمهتمون بفلسفة التاريخ وهي إشكالية تقترب كثيرا من الدراسة الابستيمولجية، هذه الإشكالية تتعلق في مجملها بالواقعة التاريخية باعتبارها حدث ماضي والتفسير السببي لها، ومنه تتفرع جملة من المشكلات الجزئية والتي تتمثل في :ما هو علم التاريخ، ما هي الواقعة التاريخية، لماذا تتعدد المناهج في علم التاريخ، هل يمكننا تحقيق العلمية في التاريخ؟.

1.التاريخ والمؤرخ/استنطاق للحدث التاريخي

1.1.التاريخ والحدث التاريخي:

أ .التاريخ لغة :جاء في القاموس المحيط، أرخ الكتاب، و أرخة و آرخه :بمعنى وقته .وجاء في المصباح المنير للفيومي، كلمة أرخ تشير إلى انتهاء وقته، وجاء في القاموس الوسيط، أرخ (إلى مكانه أرخا :بين وقته) .أرخ (الكتاب :حدد تاريخه والحادث ونحوه :فصل تاريخه وحدد وقته، وجاء في كتاب الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ قول السخاوي :فالتاريخ في اللغة الإعلام بالوقت، يقال :أرخت الكتاب و ورخته) بمعنى (أي بينت وقت كتابته، كما أشار إلى ذلك المستشرق جب في كتابه' علم التاريخ 'تأريخ : لفظ عربي بمعنى العهد أو الحساب أو التوقيت، أي تحديد الوقت، أمّا كلمة Historia فهي كلمة يونانية الأصل تدل جذورها على معنى الرؤية، حيث أن كلمة Histor تعني الرؤية والمشاهدة أو الاستقصاء بقصد المعرفة، كما أشار إلى ذلك مراد وهبة في معجمه الفلسفي بقوله :إنّ كلمة تأريخ في اللغة العربية تعني الإعلام والتوقيت، أمّا في اللغة اليونانية تعني التعلم والمشاهدة.

ب .التاريخ اصطلاحا :يعرفه جميل صليبا في معجمه الفلسفي بقوله :التاريخ علم يبحث في الوقائع والحوادث الماضية، ويعرفه بيكون بأنه هو معرفة الأمور الجزئية، والذاكرة آلة هذه المعرفة، وينقسم التاريخ عنده إلى تاريخ طبيعي وتاريخ مدني أما عند هيغل فهو إدراك للأسباب التي من اجلها حدثت هذه الوقائع، أمّا عند توينبي فهو العلم الذي يبحث في الحياة التي تحياها الوحدات البشرية، أي المجتمعات، وفي العلاقات القائمة بينها، وقد عرفه ابن خلدون بقوله" :التاريخ فن غزير المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم"، وجاء في موضع آخر قوله" :اعلم لما كانت حقيقة التاريخ انه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنسن والعصبيات

وأصناف التقلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال"، وعرفه المستشرق جب H. A. R. Gib بقوله" التأريخ "أولا بمعنى التاريخ العام، أي تسجيل أهم حوادث الأمم، وبمعنى الحوليات أي تدوين الحوادث عاما عاما، وبمعنى الأخبار مرتبة بحسب العصور."

.جالتاريخ والعلم :هل يمكننا اعتبار التاريخ علم أم فن؟ .إنّ هذا السؤال أثار جدلا كبيرا بن الفلاسفة والمفكرين حيث ذهب بعض منهم إلى اعتبار التاريخ فن في حين ذهب بعض آخر إلى القول بأن التاريخ علم.

.1التاريخ فن :يعتقد الكثير من الدارسين للتاريخ والباحثين في مواضيعه أن هناك علاقة جدلية بين التاريخ والفن، حيث يعتبر الفن احد دروب المعرفة التاريخية وأحد المصادر التي تعتمد عليها الرواية التاريخية، كما أن الفن يساعد المؤرخ على كشف الحالات الوجدانية لمختلف الأزمنة والعصور.

إنّ الفن وسيلة من الوسائل التعبيرية على انفعالات النفس البشرية وتجسيد هذه الانفعالات في أشكال وأفعال تعبيرية كالرقص، الرسم، الموسيقي، المسرح، الأدب، النحت، يمكن للنفس البشرية أن تبوح من خلالها عما يختلجها من مشاعر وإحساسات مختلفة، كل ذلك يساعد المؤرخ على سبر أغوار النفس البشرية ممّا يساعده على الكتابة التاريخية بحمولة وجدانية وما يمكنه من إحياء الماضي وبعث روحه من جديد.

الحدث التاريخي ليس مقترنا بسير الأبطال وانجازاتهم فقط، بل يشمل كذلك الجوانب الحضارية والقيمية والفنية للإنسان، هذه الأخيرة معالم مشتركة بين الإنسانية جمعاء، وبالتالي مصادر الرواية التاريخية متعددة، وثائق، معاهدات، شهادات، مباني، نقود، وحفريات مختلفة، منحوتات، تلك المصادر التاريخية مبللة بحمولة جمالية، وثيقة فن الكتابة والتعبير، شهادة فن القصة والكلمة، مباني فن العمارة، نقود فن النقش والرسم،تماثيل فن النحت،ومادام مصادر الرواية التاريخية مثقلة فنيا، فالمؤرخ لا يمكن أن يكون إلا فنانا في تصوره ووصفه للواقعة التاريخية، فالإنسان ذات مبدعة والإبداع فن، فكلمة إبداع توحي دائما بالفن، والإنسان كقيمة فنية في حد ذاته ومبدع للفن هو العنصر المشترك بين التاريخ والفن،" إن التاريخ سواء أكان علما أو غير علم فهو بلا ريب فن من الفنون ."

إنّ الواقعة التاريخية لا يمكن لها أن تكون واقعة جوفاء خالية من عواطف وأحاسيس وآمال وطموحات الأشخاص، إنها ليست بشيء أو مادة جامدة، بل هي زخم من الأحداث المتداخلة فيما بينها، تعود لحقبة زمنية معينة، ولذلك لا يمكننا اعتبار التاريخ مجرد" سجل يحوي هذه الأحداث والحقائق والوقائع ولكنه عبارة عن خبرات وتجارب حيوية ديناميكية لأناس عاشوا في وقت ماض ولهم مطالب وحاجات وآمال، حاجاتهم و آلامهم تؤثر علينا إلى اليوم."

إنّ الواقعة التاريخية تقف في وجه علميتها عوائق كثير منها عدم ملاحظتها، وعدم إمكانية إخضاعها للتجربة العلمية، ولا يمكننا تعميم نتائجها، ولا يمكن التنبؤ فيها، كما انه لا يمكننا دراستها إلا من خلال ربطها بما سبقا وما أتي من بعدها، كل هذا يفقدها صفة العلمية والموضوعية، هذا ما يجعلها اقرب للفن منها إلى العلم.

لا يخفى على احد بأن المؤرخ شخص له ميول ورغبات وأهواء وخلفية إيديولوجية ،كثيرا ما تصبغ الدراسات التاريخية بها وبتالي تصبح الدراسات التاريخية تعبر عن ذاتية المؤرخ ووجهة نظره ولا تعبر عن واقعية وموضوعية الواقعة التاريخية، وبالتالي فهي ابعد ما تنسب إلى العلم واقرب ما تكون إلى الفن، يقول ادوارد كار في كتابه ما هو التاريخ" طالما أن كل الأحكام التاريخية تتضمن أشخاصا ووجهات نظر، فإن الإحكام التاريخية لا تختلف في قيمتها وانه لا وجود لحقيقة تاريخية' موضوعية." '

.2التاريخ علم :يعتقد الكثير من الدارسين بأن التاريخ علم كباقي العلوم الأخرى، يمكن دراسة وقائعه التاريخية دراسة علمية، بمعنى تدرس كوقائع قابلة للمعرفة خارجة عن دائرة الذات، وبالمعنى

الفينومينولوجي هناك تقابل بيني بن) ذات/موضوع (الموضوع ينعكس على الذات في شكل قصدي . "يعالج مباشرة ما يأتي بين أيدي الوعي وفي متناوله "

إنّ الوقائع التاريخية يمكن أن تجمع وتصنف ونستخلص منها نتائج كبقية العلوم الأخرى، لكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا هل يمكننا اعتبار التاريخ علم تجريبي؟ .بمعنى هل يمكننا اعتبار علم التاريخ كعلم الفيزياء و البيولوجيا والكيمياء؟ تخضع وقائعه للملاحظة المباشرة والتجربة؛ ثم الاستنتاج الذي يفضي في بعض الحالات إلى قانون علمي يمكن أن نعممه على الظواهر التي تكون مماثلة للظاهرة الطبيعية التي درسناها، وطبقا للقانون المستنتج والمعمم يمكننا التنبؤ بحدوث هذه الظواهر المتماثلة في الطبيعة، أم هو علم له خصوصيته ويختلف عن بقية العلوم الأخرى؟.

يعتقد المؤرخ انجليزي" بيوري1927-1861) J. B. Bury "م (أن دراسة الحادثة التاريخية شبيهة إلى حد ما بدراسة ومعاينة الواقعة الجيولوجية يقول في ذلك" :اقرب العلوم الطبيعية شبها به] يقصد علم التاريخ [الجيولوجيا، فكما الجيولوجي يدرس الأرض كما هي الآن، إذا أمكنه ذلك، كيف صارت إلى حالتها الحاضرة، فكذلك المؤرخ يدرس الآثار المتخلفة عن الماضي ليفسر بواسطتها ويقدر إمكانه الحاضر"، ولذلك أراد' فيكو 'أن يؤسس لعلم التاريخ منهجا علميا شبيها بالمنهج التجريبي، يقوم هذا المنهج على أساس فكرتين أساسيتين وهما:

أولا :إنّ معرفتنا للظواهر البشرية يمكن أن تكون معرفة دقيقة مثل معرفتنا للظواهر الطبيعية.

ثانيا :إنّ التاريخ في نهاية الأمر هو علم بشري يقوم على معرفة تجريبية سابقة لما هو بشري، وبالتالي يكون أكثر العلوم قابلية للفهم والتفسير والتعقل ولذلك قال عنه كاسيرر بأنه" قام بوضع مثل اعلي تاريخي للمعرفة في مقابل المثل الأعلى الرياضي والعلمي لديكارت ."بناء على ما سبق سعى الكثير من المشتغلين بفلسفة التاريخ إلى التأسيس لمنهج استقرائي تجربي غير مباشر لدراسة الوقائع التاريخية، يقوم هذا المنهج على ثلاث خطوات وهي:

-1حشد مادة تاريخية فيها حصيلة هائلة من التفضيلات التاريخية.

-2حصر الواقعة المراد دراستها زمانا ومكانا حتى يستطيع الباحث أن يستوفيها الدراسة.

-3الوصول إلى أحكام كلية تمكّن من الاستفادة بها في الحاضر والمستقبل.

يمكن أن نستنتج ممّا سبق بأنه لا يمكننا اعتبار التاريخ علما تجريبيا لأنّه لا يمكننا إخضاع الواقعة التاريخية الماضية للملاحظة والتجربة، لكن يمكننا اعتبار التاريخ علم يختلف عن بقية العلوم الأخرى لذلك كان له منهجه الخاص به.

2.1.المعرفة التاريخية/ تأريخ أم فلسفة للتاريخ :

أ .هيرودت وفجر المعرفة التاريخية :إنّ المعرفة التاريخية كمعرفة ترجع إلى العصر اليوناني وبالضبط إلى المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت484) Hérodote ق.م425-ق.م(، وعلى العموم ما أرخ له كان يتعلق بجانبين من الحدث التاريخي، الجانب الأول :هو التأريخ للأحداث الماضية، أمّا الجانب الثاني فهو التأريخ لسيّر الأبطال الذين وجدوا في تلك الحقبة الزمنية من اجل تأريخ لسيرهم ومآثرهم يقول هيرودت في مؤلفه التاريخي" أنا افهم بكتابي هذا :التاريخ، الاحتفاظ بمآثر الرجال لكي لا يمحوها الزمان، لكي لا تبقى جلائل المآثر ومدهشاتها، سواء أكانت يونانية آم بربرية دون تعظيم وامتداح."

إنّ هيرودت كان مؤرخا للأحداث والحروب والصراعات والبطولات التي شاهدتها الحقبة اليونانية، كان يصف وفي بعض الأحيان يعلل ويفسر ويتقصى ويبحث عن الأسباب التي أدت إلى تلك الأحداث والوقائع، وخير مثال على ذلك تأريخه للحرب التي دارت رحاها بين اليونان والفرس، التي حاول وصفها والوقوف عند أسبابها .إنّ هيرودت في تأريخه للأحداث والوقائع التاريخية لم يكن واصفا لها فقط، بل كان يبحث عن العلل والأسباب التي تؤدي إلى تلك الأحداث، فكان يربط بين الحدث التاريخي وموقعه، وبين الواقعة التاريخية والأقوام والأجناس البشرية .وهذا حتى تكتمل المعرفة التاريخية لديه .

تميزت كتابات هيرودت التاريخية بثلاثة خصائص وهي :

.التاريخية الوقائع بوصف هيرودوت يقوم :أولا
ثانيا :يقوم بالبحث عن الأسباب والعلل التي أدت إلى تلك الوقائع التاريخية.
ثالثا :يربط في كتاباته التاريخية، بين الوقائع التاريخية وعادات وملل ونحل وقيم ولغات الشعوب واتجاهاتهم الفكرية، والمكان الذي وجدوا فيه والزمان الذي عاشوا فيه.

نستنتج من كل ما سبق أنّ هيرودت بالتقريب كان أول مؤرخ حقيقي اهتم بالمعرفة التاريخية كمعرفة مرتبطة بالماضي سواء في شكلها كأحداث ماضية أو كبطولات أشخاص، إنه لم يكن مؤرخا فحسب، بل كان اثروبولوجيا يعمل على ربط الحدث التاريخي بالمكان الجغرافي وعادات وقيم وملل ونحل مختلف الأجناس البشرية .إضافة إلى ما كتبه هيرودت نجد أيضا كتابات' ثوكوديديس الأثيني Thucydes of ' Athénaق(.، التاريخية التي يركز فيها على مظاهر الحياة اليومية لليونان ويربطها بالحياة العسكرية والسياسية والحروب التي حدث آنذاك، وابرز ما كتب" تاريخ الحرب التي نشبت بين البيلوبونيز و الأثينيين."

تميّزت المعرفة التاريخية عند اليونان بميزتان وهما :أولا :لا يمكن فصل المعرفة التاريخية كمعرفة علمية موضوعية مستقلة عن الأسطورة رغم ما بذله هيرودوت و ثوكوديديس وبولوبيوس Polybius 201)ق.م120-ق.م (من اجل كتابة تاريخية على الأقل تتميز بالمعقولية إنّ لم تكن معرفة تاريخية موضوعية .ثانيا :لا يمكن فصل المعرفة التاريخية عند اليونان عن المعرفة الفلسفية، وهذا ما نلاحظه في كتابات بعض فلاسفة اليونان،' اكسينوفون354-430) 'ق.م (وذلك من خلال تأريخه للحياة الاجتماعية خاصة الفكرية منها، كما نلاحظ ذلك أيضا في بعض محاورات أفلاطون؛ والتي كان يجمع فيها شخصيات تنتمي إلى حقب زمنية مختلفة ومرتبطة بواقع فكري معين، كشخصية سقراط عل سبيل المثال لا الحصر، كما نجد إرهاصات للكتابة التاريخية في مؤلف أرسطو" الميتافيزيقا "وكيف أرخ في هذا المؤلف للفلسفة وتطورها ،ونشأة العلوم، غير أنّه لم يعطي أهمية في مجمل ما كتب للأحداث والمظاهر الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي سادت عصره.

نستنتج من كل ما سبق :أن جذور المعرفة التاريخية تعود إلى اليونان غير أن هذه المعرفة لم تكن معرفة تاريخية تخضع لبراديغم مفاهيمي تاريخي محدد، وإنما كانت معرفة تخلط بين الأسطورة والشعر والفلسفة والتاريخ.

ب .ابن خلدون والحدث التاريخي كمعرفة :يختلف الدارسون لآثار ابن خلدون في تصنيف الرجل هل هو فيلسوف أم عالم اجتماع أم مؤرخ، غير أن معظمهم يصنفونه ضمن قائمة المؤرخين وبالضبط ضمن قائمة المؤرخين الذين اشتغلوا على فلسفة التاريخ .يعتبر فكره مزيج من علم العمران والفلسفة والتاريخ غير أن الذي وصلنا من فكره قليل فلم يصلنا من آثاره إلاّ كتابين عندما نستثني كتاب' ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر'، فالكتاب الأول عنوانه' لباب المحصل في أصول الدين'، وهو يلخص لنا ما جاء في كتاب المحصل الذي كتبه فخر الدين الرازي، أمّا الكتاب الثاني فعنوانه' شفاء السائل لتهذيب المسائل'، وهذا الكتاب يتعلق بالتصوف وما سائله، أمّا الكتاب الثالث فيتكون من ثلاثة أجزاء وهي المقدمة ، وديوان المبتدأ والخبر والتعريف، غير أن هذا الكتاب لم ينل شهرة ما نلته مقدمته، وما يلاحظ على هذه المقدمة إنها مقدمة لكتاب تاريخي بامتياز، غير أنها لم تكن مقدمة تاريخية بقدر ما كانت عمل لمؤرخ مبدع صاغ فيها مجمل فكره من فلسفة وعلم عمران وتاريخ واقتصاد وعلم سياسة، لذلك نالت كانت هذه المقدمة محل اهتمام الكثير من الفلاسفة والعلماء، فكانت بمثابة مدونة للكثير من الدراسات.

.جهردر والكتابة التاريخية :يعتبر القرن التاسع عشر قرن الاكتشافات العلمية وتطور المعرفة العلمية ولا سيما في العلوم التجريبية التي عرفت طورا هائلا في هذا القرن، فأصبحت النزعة العلمية هي هدف ومبتغى جميع العلوم الأخرى، ممّا حفز العلوم الإنسانية والاجتماعية على الانفصال عن الفلسفة، وبذلك

عرفت هذه الأخيرة تطورا ملحوظا خاصة في مستوى المناهج، التي كان لها الفضل في تطوير هذه العلوم، ومن بين هذه العلوم علم التاريخ الذي عرفت مناهجه قفزة نوعية.

إن أهمية المناهج التاريخية التي ظهرت في هذا القرن تكمن في كونها ساهمت إلى حد كبير في تخليص الكتابة التاريخية من النمط الذي يسودها قبل هذا القرن، ميزته الخلط بين ما هو تاريخي وما هو أسطوري خرافي وما هو فلسفي، والأدلة على ذلك كثيرة لا حصر لها.

يعتقد كاسيرر أن بوادر بزوغ النزعة التاريخية كانت مع هردر، التي كانت تعارض بشكل واضح عصر المفاهيم التي قام عليها عصر التنوير، حيث يرى هدردر انه من الخطأ أن نقيم فهما للتاريخ على ما تصوره فلاسفة عصر التنوير ، لأن عصر التنوير كان يقيم أحكاما كلية انطلاقا من تصوره لمفهوم الإنسانية الذي يقوم لديه على أساس أنها واحدة متماثلة فيما بينها فالإنسان هو الإنسان حتى وإن اختلفت الأمكنة والأزمنة التي وجد فيها' تصور المذهب الإنساني الذي أسسه مونتاني وبترارك'، في حين أن الصيرورة التاريخية لا يحكمها مبدأ الثبات وإنما تخضع لمبدأ التغير والاختلاف، إنّ الأمة الواحدة لا تتشابه لحاظتها التاريخية فكيف يمكن لنا أن نتصور تشابه الأمم فيما بينها، إن الرؤية التي تقيم المعرفة التاريخية على مبدأ التماثل والتشابه بين شعوب المعمورة مع إهمالها لمبدأ وطابع الاختلاف بين الأمم هي رؤية غير صحيحة وهي فهم سيئ لمجرى الوقائع التاريخية.

ينظر هردر إلى المؤرخ على أساس انه رجل علم وليس رجل دين واعظ يحكم على الأشياء من خلال معايير يحددها الدين، وبالتالي عليه أن ينظر إلى الأمم على أساس أن لكل امة نمطها الحياتي والاقتصادي والسياسي والفني، يختلف عن الأمم الأخرى وبالتالي لا مجال للأحكام الكلية في المعرف التاريخية؛ كما أن الرؤية التي تقوم على أساس فهم الماضي من خلال الحاضر هي رؤية لا يجانبها الصواب لأن" الإنسانية ليست شكلا ولا طابعا ولا نمطا واحد، ومن ثم ينبغي التعبير عن كل عصر بتعبيرات خاصة به لأن لكل عصر كما لكل امة طابعا فريدا لا يتكرر."

ينطلق هردر في موقفه هذا من نزعته الرومانتكية حيث لا يخفى على أي باحث في هذا المجال؛ بأن لجوته تأثير كبير على أفكار هردر، غير أن الملاحظ أن النزعة الرومانتيكية لم تنطلي على الكتابة التاريخية فحسب، بل شملت الأدب والفلسفة وهذا ظاهر في كتابات روسو الفلسفية على سبيل المثال.

إن النزعة الرومانتيكية والتي تعني في عمومها" إطلاق الموقف الفردي وإثارة الشعور الفردي وإثارة الشعور في أعمق صوره والاعتقاد بلا نهائية الوجود ولا نهائية التقدم التاريخي"، فإذا أخذنا هذا التعريف بعين الاعتبار ،فإنه يمكننا القول بأن المذهب الرومانتيكي هو ضد الكتابات الأدبية الكلاسيكية كما انه ضد العقلانية الفلسفية التي تقيم أفكارها على مبدأ الكل عقلاني، من ثمة؛ نفهم لماذا كان هردر يعارض مبادئ عصر التنوير خاصة في مجال الكتابة التاريخية .إذن النزعة الرومانتكية هي حركة فكرية وأدبية وفنية اكتسحت أوروبا نهاية القرن الثامن عشر وأثرت هذه النزعة على مجمل مجالات الحياة في أوروبا، فأثرت في الفكر وفي التاريخ والأدب والفن وحتى في أخلاق الناس وآرائهم ولذلك يقول ايزايا برلين في كتابه' جذور الرومانتيكية" 'تكمن أهمية الرومانتيكية في كونها احدث الحركات الكبرى التي حولت الحياة والفكر في العالم الغربي."

قلنا سبقا إنّ هردر هو مؤسس النزعة التاريخية، إذن فما هي النزعة التاريخية؟ .هي نزعة ترى بأن الأحداث ناشئة عن تطور تاريخي لكن لا يمكننا أن نفهم الحاضر من خلال الماضي، وبالتالي لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نحكم" على الأفكار والحوادث إلا بالنسبة إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه لا بالنسبة إلى حقيقتها الذاتية لا غير، لأننا إذا نظرنا إليها من الناحية الذاتية فقط ربما وجدناها خاطئة أو منكرة، ولكننا إذا نسبناها إلى الوسط التاريخي الذي ظهرت فيه وجدناها طبيعية وضرورية"، إذن النزعة التاريخية ترى بأن للواقعة التاريخية ظروف وأسباب أدت إلى حدوثها وما على المؤرخ إلاّ بالرجوع إلى هذه الأسباب حتى يفهم لماذا حدثت هذه الواقعة التاريخية، ومن هنا نفهم أيضا لماذا يعتبر هردر مؤسس النزعة التاريخية في الكتابة التاريخية .لأنه يرى بأن لكل واقعة تاريخية أسبابها الخاصة بها، وبالتالي لا

يمكننا التعميم في التاريخ .أو النظر إلى التاريخ كوحدة كلية .لكن السؤال الذي يطرح لماذا تعارض النزعة الرومانتيكية والمذهب التاريخي عصر المبادئ والمفاهيم التي قام و دعا إليها عصر التنوير؟.

إنّ الحركة التنويرية التي شهدتها أوروبا لم تكن مرتبطة بأي مذهب فلسفي بقدر ما كانت نتاجا لصدام ديني دموي شهدته أوروبا لم يحسم من أي طرف كان ولم يكن هناك متنصرا ولا منهزما، وبما أن هذا الصراع الطائفي الديني لم يحسمه احد لصالحه بدأ المجتمع الأوروبي يستكين إلى نوع من التسامح الديني والتعايش السلمي بين جميع الطوائف الدينية المشكلة لأوروبا المسيحية آنذاك، اثر هذا المناخ على السياسة والاقتصاد والثقافة فاستحبه وأشاد به الكثير من الفلاسفة على شاكلة سبينوزا ولوك، فامتدت نتائج هذا الوضع من بريطانيا إلى فرنسا، ممّا مهد الطريق إلى قيام الثورة الفرنسية سنة1789 م .كما أن حركت التنوير في أوروبا ارتبطت أيضا بالاكتشافات العلمية وانتشار الوعي المعرفي لدى الأوروبيين . لنعد إلى سؤلنا لكن لماذا عارضت النزعة الرومانتيكية والمذهب التاريخي أفكار عصر التنوير؟.

إنّ الفكر السياسي والوضع الاقتصادي والتطور العلمي افرز مجتمعا أوروبيا مستقرا إلى حد ما، لكن النزعة الرومانتيكية كانت ترى في ذلك الاستقرار السياسي والاقتصادي قتل لقوى الفرد، إنّ الاستكانة للآلة هي قتل لعواطف الفرد المشحونة بالأهواء والانفعالات، لذلك كانت تقف على النقيض مع كل ماله علاقة بالاستقرار الاجتماعي والسلم المدني والتعايش بين الأفراد، إنها نزعت تبحث عن المخاطرة والمغامرة تفضل" العيش في خطر."إنها حركة تمجد الطبيعة وكل ماله علاقة بالطبيعة وتنفر من المجتمع الصناعي وبكل ماله علاقة بالآلة، إنها حركة تدعو وتنادي بالعودة إلى الطبيعة، فالحضارة مفسدة للطبيعة والإنسان، فعلى الإنسان أن ينأى بنفسه" عن فساد المدن والحضارة"، فإذا كان هذا هو موقف النزعة الرومانتيكية من عصر التنوير فما موقف المذهب التاريخي منه؟.

شهدت أوروبا خلال القرن التاسع عشر نهضة علمية وأدبية وفكرية وثقافية أدت في نهاية الأمر إلى ما يعرف بالحضارة الغربية؛ ومن بين العلوم التي عرفت تطورا علم التاريخ، غير أنّ هذا الأخير عرف عدة مذاهب ونزاعات ومن بينها النزعة التاريخية فمنذ أن بدأ نيتشه في نشر بواكير كتاباته ازداد التساؤل حول فائدة التاريخ وقيمته وتطور الأحداث التاريخية وأسبابها وعللها.

يرى كاسيرر بأنه من الخطأ ربط هذا الاهتمام بالتاريخ بالنزعة الرومانتيكية التي شهدتها أوروبا : وإنما تعود جذور ذلك إلى عصر الأنوار، أدرك فلاسفة الأنوار على شاكلة' مونتسكيو 'و'فولتير 'وقد سبقهم في ذلك دفيد هيوم ولوك أن البحث في المسائل التاريخية يكتسي أهمية بالغة لذلك سعى هؤلاء الفلاسفة في سبيل تطوير مناهج الكتابة التاريخية يقول كاسيرر" فإننا نصادف طلائع للتفكير التاريخي الحديث متمثلة في منتسكيو وفولتير وهيوم وجيبون وروبرتسون."

عرفت النزعة التاريخية تطورا هائلا خلال القرن التاسع عشر، ولم يمس هذا التطور التفكير التاريخي في ذاته بقدر ما مس المناهج التي يمكن من خلالها دراسة الظاهرة التاريخية، باعتبار الظاهرة التاريخية ظاهرة كبقية الظواهر الإنسانية، يمكن إخضاعها لمنهج علمي حتى وان كان يختلف في طابعه العام عن المنهج التجريبي الذي تستخدمه العلوم التجريبية في دراسة ظواهرها الطبيعية، وهذا من اجل تحقيق العلمية في الدراسات التاريخية؛ وهذا ما سعت إليه النزعة التاريخية خلال القرن التاسع عشر يقول كاسيرر" فما يتميز به القرن التاسع عشر ويعتبر من خصائصه ليس اكتشاف التفكير التاريخي، كما هو كذلك بل هو الاتجاه الجديد الذي اتخذه والحق أن انقلابا يدعو إلى الدهشة قد حدث انه نوع من الثورة الكوبرنيكية التي أدت إلى تقديم علم التاريخ في صورة جديدة ."

نستنتج من كل ما سبق :أولا :أن هردر خلفيته الفكرية رومانتيكية .ثانيا :كان له دور في ظهور ما يعرف بالنزعة التاريخية، التي كان لها دور في تطوير المعرفة التاريخية .ثالثا :إن النزعة الرومانتيكية والتاريخية كانتا تعارض المفاهيم والتصورات التي قام عليها عصر التنوير في فتصورها للمعرفة التاريخية.

2.علم التاريخ/الوقائع والمنهج

1.2.التأريخ والواقعة التاريخية :إن الكتابة التاريخية والتي تعتبر الواقعة حجر أساساها عرفت تطور كبيرا خلال القرن التاسع عشر وهذا بفضل المناهج التاريخية المتعددة التي ظهرت آنذاك، التي كانت غايتها هي الوصل بالكتابة التاريخية إلى حدود المعرفة العلمية، وهذا تأثرا بالنزعة العلمية التي طغت على هذا القرن، إن النزعة العلمية المأمولة في الكتابات التاريخية دفعت بالمشتغلين عليه؛ أن يجعلوا من التاريخ علما ولنا في ما قام به فيكو خير دليل على ما نقول.

يرى ادوارد كار أن القرن التاسع عشر هو قرن دراسة الواقعة التاريخية حيث يقول" :ما أريده هو الوقائع] يقصد بذلك الوقائع التاريخية [فالوقائع وحدها هي المطلوبة في الحياة"، لذلك فالمؤرخ عندما يؤرخ لواقعة تاريخية محددة مكانا وزمانا لا يهتم بما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، وإنما عليه البحث والتقصي وتفسير وتعليل ووصف الواقعة التاريخية كما هي، بطبيعة حال مستعينا بكل ما يمكنه من ذلك مستبعدا كل ما هو غير موضوعي وذاتي في دراسته التاريخية إنّ" مهمة المؤرخ هي مجرد عرض الحال كما هو."

إنّ مهمة المؤرخ في تأريخه للواقعة التاريخية تكتنفها صعوبات ومعوقات جمة لذلك يبدو أن وصفه للواقعة التاريخية كما هي أمر ليس سهل المنال إن لم يكن مستحيل، أول هذه الصعوبات تكمن في كون الواقعة التاريخية حدث ماضي لا يتكرر وبالتالي الوصف الذي يقدمه المؤرخ قائم على أساس ما تخلفه هذه الواقعة من آثار، ثاني هذه الصعوبات المؤرخ في نهاية الأمر هو إنسان له خلفية ايديولوجية، ودينية وينتمي لمجتمع له بنية أخلاقية سوسيوثقافية محددة المعالم والخصوصيات، وبالتالي مهما حرص على الجانب الموضوعي العلمي في دراسته ووصفه للواقعة التاريخية لا يمكنه أن يتخلص من ذاتيته.

دفع ذلك النزعة الوضيعة في التاريخ والتي ترى فيه علم -وللإشارة فإن النزعة الوضعية في العلوم الإنسانية والاجتماعية يرجع تأسيسها لعالم الاجتماع الفرنسي اجيست كونت-تعارض استخدام المنهج الوصفي في التاريخ، وتتمسك أكثر بالواقعة تعطي أهمية بالغة للمادة التاريخية التي تقوم على أساساها دراسة الواقعة التاريخية، المباني، النقود، المعاهدات، المخطوطات، الشهادات، المنحوتات، الآثار بمختلف أشكالها وأنواعها، مما يسمح باستخدام" الملاحظة والتجريب والمقارنة"، هذه المادة التاريخية وللتحقق من صحتها يجب إخضاعها للنقد والتمحيص، ثم يبني المؤرخ قراءته و تفسيراته واستنتاجاته على تلك الشواهد، يقول ادوارد كار موجها كلامه للمؤرخ" عليك التحقق من الوقائع أولا ثم استخلص استنتاجاتك ."إنّ النزعة التاريخية في التاريخ لم تكن وليدة الصدفة وإنما جاءت متماهية مع ما حققه المنهج التجريبي من نجاحات في العلوم الطبيعية.

إنّ العمل الذي قام به فرنسيس بيكون هو عمل يكتسي غاية من الأهمية البالغة على مستوى علم المناهج، خاصة ما ورد في كتابه' الارغانون الجديد'، الذي حاول من خلاله التأسيس لمنهج جديد للعلوم . يستثني من خلاله كل الفلسفات العقلية المثالية التي كان يرى فيها فلسفات لا جدوى منها، بل هي مجرد خيال لا فائدة منه، بينما مجد فيه الفلسفات الواقعية التي تعتبر جذورا للعلم الطبيعي التجريبي.

إنّ الفصل بين الذات والموضوع في الدراسات العلمية أمر لا بد منه، ولذلك كان على المؤرخ في دراسته للواقعة التاريخية أن يفصل بين الذات والموضوع، الذي يعتبر احد الأسس المنهجية التي يقوم عليها المنهج العلمي خاصة في العلوم الإنسانية والاجتماعية و على الأخص في الدراسات التاريخية.

لم يعرف العلم الطبيعي بتعبير بيكون تقدما إلاّ يوم أن فصل بين الذات والموضوع، إذن فكل دراسة تاريخية علمية موضوعية تفترض وتقتضي من المؤرخ أن يلجم خلفيته الفكرية والدينية والإيديولوجية، ثم يقدم على دراسته للوقائع التاريخية، فكل تعليل أو تفسير أو استنتاج لا يقوم على أساس الآثار العيانية للواقعة التاريخية هو مجرد هراء، لذلك يقول ادوارد كار الواقعة Fact هي" مادة أولية نكتسبها من التجربة."

إنّ الواقعة التاريخية ليست مجرد استنتاجات صادرة عن المؤرخ لا أساس لها، وإنّما هي حادثة وقعت لها شواهد، أمّا الاستنتاج فهو ما يستنتجه المؤرخ من هذه الشواهد القائمة حتى الآن ولذا كان

التاريخ عبارة" عن مجموعة من الوقائع التي تم التحقق منها، وهي والوقائع التي يجدها المؤرخ في الوثائق والمخطوطات "والمذكرات والشهادات الحية.

إنّ النزعة الوضعانية في التاريخ والتي ترى أن التاريخ يمكن علمنته من خلال دراستنا للوقائع التاريخية استنادا للشواهد التي تركتها، أمر ممكن إلى حد ما، خاصة إذا استعان المؤرخ بعلوم أخرى التي تساعده على التحقق من المادة التاريخية، كعلم الآثار، علم المخطوطات، والهندسة المعمارية، إضافة إلى علم الكيمياء، وعلم الجغرافيا، لكن هذا لا يجعلنا أن نجزم بأن الدراسات التاريخية هي في منأى عن ذاتية المؤرخ .إذن، إذا كان من الواضح أن هناك منهجين للكتابة التاريخية، منهج وصفي يعتمد على وصف الواقعة التاريخية، مع مراعاته للفصل بين الذات والموضوع' الذات/الموضوع'، ومنهج استقرائي يحاول أن يماهي المنهج التجريبي في علوم الطبيعة، وذلك من خلال اعتماده على الواقعة التاريخية و ما تركته من شواهد مادية قائمة حتى الآن والتي تكون حجر الزاوية في كل ما يقوم به المؤرخ من تعليل وتفسير واستنتاج .لكن ما هي الواقعة التي يعتمد عليها المؤرخ؟ .

حاول الكثير من فلاسفة التاريخ أن يجيبوا على هذا السؤال ومن بينهم ادوار كار الذي أعطى لهذا السؤال أهمية بالغة في كتابه' ما هو التاريخ 'ونستنتج ذلك من خلال قوله":محاولة الإجابة على السؤال موضوع دقيق ينبغي علينا البحث فيه بعناية."

يذهب ادوارد كار إلى القول بأن هناك بعض الوقائع تعد عمودا فقريا للتاريخ، وهذه الوقائع هي مهمة بالنسبة للمؤرخ، لكن وبما أن هذه الوقائع تمثل مفاصل كبرى في مسار التاريخ في شكله العام، يجب على هذا الأخير عندما يكتب عنها أن يكون حذرا، لأنّها وقائع تمثل أحداث تاريخية كبرى اتفق عليها جل المشتغلين بالكتابة التاريخية، هذا ما يجعل منه أن لا يخطئ عند ما يكتب عنها، فمثلا عندما يكتب المؤرخ على الحرب العالمية الأولى أو الثانية أو يكتب على معركة نافرين أو معركة ستالينغراد، فالدقة العلمية تصبح هنا" أمر واجب وليست فضيلة ." إذن من اجل أن تكون الكتابة التاريخية موضوعية ودقيقة على المؤرخ في هذه الحالة أن يعتمد على أمرين وهما:

أولا :من حق المؤرخ ومن واجبه أن يتحرى الموضوعية ولكي يحقق ذلك عليه الاستعانة بعلوم أخرى والتي تساعده على ذلك فمن حقه الاستعانة في كتاباته التاريخية ، بعلم الآثار و الايبوغرافيا، وعلم المسكوكات وعلم المخطوطات وهذا على سبيل المثال لا الحصر، وأن يستعين بكل الوسائل التي تمكنه من الموضعية في كتابته التاريخية-ولقد اشرنا إلى ذلك آنفا.

ثانيا :من خصائص هذه الوقائع التاريخية لمفصلية، هو أن هذه الوقائع تأخذ أهميتها من المؤرخ في حد ذاته، فهو الذي يستدعي هذه الوقائع وهو الذي يحدد أهميتها وهو الذي يربطها بسياق تاريخي معين، فمن الذي يجعلنا نعتقد بأن معركة أم جالوت معركة عظيمة، هو المؤرخ، إذن أهمية هذه الواقعة على سبيل المثال أخذت أهميتها من المؤرخ لا غير .لكن السؤال الذي يطرحه نفسه علينا في هذا السياق العام :هل يمكننا اعتبار كل حدث تاريخي واقعة تاريخية؟.

هناك إجابة محدد لهذا السؤال وهي :لا يمكننا اعتبار أي حدث ماض بمثابة واقعة تاريخية، لماذا؟ . لنعطي مثال يمكننا أن نبين من خلاله ما ذهبنا إليه، فالتاريخ اليوناني أو الإسلامي أو الروماني أو البيزنطي، هو تاريخ زاخر بالأحداث، لكن هل يمكننا اعتبار كل هذه الأحداث وقائع تاريخية بطبيعة الحال لا .إذن كيف نميز بين الواقعة التاريخية والحدث التاريخي العادي؟ .إنّ الوقائع التاريخية هي تلك الأحداث التي يكون لها تأثير كبير في مسار التاريخ، وفي حالات معينة يمكن أن تؤدي إلى تغيير في مسارات التاريخ وصيرورته وحركية، أمّا الحدث التاريخي العادي فهو الذي لا يخلف أي اثر على مسارات التاريخ الكبرى.

2.2.المؤرخ والمنهج التاريخي :إن القفزة النوعية التي عرفتها علوم الطبيعة من خلال تطبيقها للمنهج التجريبي، دفع علماء الإنسانيات إلى طرح سؤال مهم، وهو هل يمكن تطبيق هذا المنهج التجريبي على مواضيع العلوم الإنسانية؟.

إنّ الرغبة في بلوغ الدقة العلمية التي بلغتها علوم الطبيعة، دفع هؤلاء العلماء إلى محاولة تأسيس مناهج للعلوم الإنسانية على شاكلة منهج بيكون التجريبي .وعموما فإن تقدم علوم الطبيعة يرجع إلى تضافر جهود الفلاسفة والعلماء ويمكن تلخيص ذلك في عاملين أساسين وهما:

أولا :اشتغال الفلاسفة من أمثال روجر بيكون وفرنسيس بيكون وجون لوك ودفيد هيوم بإمكانية تأسيس منهج خاص بالفيزياء الطبيعية.

ثانيا :اشتغال العلماء من أمثال كوبرنيك و غاليليو و إسحاق نيوتن و كبلر بموضوع الفيزياء الطبيعية.

أثمر ذلك بتأسيس بيكون لارغانون جديد للعلوم الطبيعية عوضا للارغانون الأرسطي' المنطق الصوري 'الذي كان يهدف من خلاله أرسطو إلى الكشف عن ماهية المعرفة، في حين ارغانون بيكون 'المنهج التجريبي 'كان يهدف إلى وضع الطبيعة في موضعها الحقيقي، بمعنى البحث في تفسير أحوال الظواهر الطبيعية، والغاية منه هو سيطرة الإنسان على الطبيعة واستغلالها وتسخيرها لصالحه، من خلال التغلب على حتمياتها المختلفة .كان لذلك تأثير كبير على المعرفة التاريخية ويمكن إجمال ذلك في ثلاثة نقاط وهي:

أولا :منهج العلم :ونعني به جمع اكبر عدد من الوقائع التاريخية والغرض من ذلك هو الوصول إلى أحكام كلية.

ثانيا :غاية العلم :إن الغاية من التأسيس لمعرفة تاريخية هو هدف براغماتي لا غير، يتمثل في تزويد الإنسان بمعرفة ماضية حتى يتسنى له فهم حاضره.

ثالثا :استقلال العلم عن الدين :منذ أن أسس بيكون منهجا تجريبيا لعلوم الطبيعة استقلت هذه الأخيرة عن الدين، ومنذ أن ظهر المذهب الإنساني فصلت المعرفة الإنسانية عن سلطة الكنيسة فانعكس ذلك على المعرفة التاريخية.

يرجع الفضل في تأسيس المنهج التجريبي لبيكون غير أن هذا لا يجلنا ننكر الدور الذي لعبه روجر بيكون و دفيد هيوم وجون لوك في تأسيسهم للمعرفة العلمية ويظهر ذلك في نقطتين:

أولا :إن التجربة العلمية تقتضي الفصل التام بين الذات العارفة وموضوع المعرفة، ممّا انعكس إيجابا على دراسات المعرفة التاريخية" إن انعكاس اثر فلسفتي لوك و هيوم على التاريخ إنّما يعني أن المعرفة التاريخية تقوم على المادة التاريخية لا عقل المؤرخ."

ثانيا :إنكار الأفكار الفطرية لدى الإنسان؛ فعقل الإنسان صفحة بيضاء كما رأى لوك، هذا يحيلنا إلى القول بأن المعرفة التاريخية معرفة تجريبية لا مجال فيها للمعرفة العقلية المثالية أو كما يسميها بيكون بالأوهام العقلية.

كان للفلاسفة خاصة منهم الانجليز اثر واضحا في التأسيس لمنهج علمي للمعرفة العلمية بشكل عام والمعرفة التاريخية بشكل خاص، لكن هذا لا يحجب علينا الدور الذي قام به العلماء حتى وإن كان دورا غير مباشر، فالجهود التي بذلها كوبرنيك ونيوتن وكبلر، خاصة على مستوى موضوع المعرفة هي جهود عظيمة، فمن اجل التأسيس لمعرفة علمية كاد غاليلو أن يفقد حياته، كما اصطدمت آراء كوبرنيك الفلكية بالمعتقدات الكنسية، كما كانت لاكتشافات نيوتن في الفيزياء وتأسيه لقوانين الجاذبية واكتشاف هارفي للدورة الدموية وقوانين روبرت بوبل في الكيمياء اثر كبير في تقدم المعرفة العلمية، فانعكس كل ذلك على المعرفة التاريخية ويمكن أن نلخص ذلك في ثلاثة نقاط وهي:

أولا :ولادة النزعة النقدية، خاصة منها النقدية التاريخية، التي طبعت عصر التنوير وهذا كرد فعل على مطلقية سلطة الكنيسة،

ثانيا :استبعاد أي قوة غيبية في تحديد مسارات التاريخ الكبرى.

ثالثا :إنّ التوجه العام الذي سلكته المعرفة هو توجه نحو المعرفة العلمية، واستبعاد كل ماله علاقة بالفلسفة المثالية، ممّا انعكس إيجابا على المعرفة التاريخية وجعلها تطمح إلى أن تكون مثل علوم الطبيعة التجريبية.

لكن لا يكتمل هذا المنهج التاريخي الذي أسست له الحركة نحو المعرفة العلمية إلاّ من خلال تدخل المؤرخ، وتكمن أهمية تدخله في مرحلتين وهما:
المرحلة الأولى :مرحلة النقد والتأكد من صحة المادة التاريخية التي جمعت، فيقف عندها المؤرخ كناقد فيتحقق منها، حتى و إن استدعى الأمر الاستعانة بعلوم أخرى .حتى يتسنى له التحقق من صدق المادة التاريخية التي جمعها.
ثانيا :قيام المؤرخ بإبراز وكتابة أحداث الواقعة التاريخية وهنا يجب عليه أن يتسلح بالروح العلمية التي تقتضي الموضوعية والابتعاد قدر الإمكان عن الأحكام الذاتية، فمرحلة تفسير وتعليل وتأويل الحدث التاريخي كواقعة من أصعب مراحل الكتابة التاريخية؛ لأنه من جهة يجب على المؤرخ توخي الحذر والسعي نحو الموضوعية العلمية، ومن جهة ثانية لا يمكن له أن يرص الأحداث التاريخية في شكل تراتبي زمني، فلا بد له أن يعلل ويفسر ويؤول ويربط الأحداث بما سبقها و ما لحقها، من اجل تقديم قراءة مقبولة من الناحية العقلية للواقعة التاريخية.

إنّ العلوم الإنسانية في عمومها وليس علم التاريخ وحده، تواجه صعوبات جمة لارتباط مواضيعها بالإنسان هذا ما يجعلها تختلف عن علوم الطبيعة،التي وقائعها ثابتة متشابهة متتالية منظمة تخضع لآلية علمية، ممّا يجعلها تخضع لمبدأ الحتمية، أمّا الظواهر الإنسانية فلا تخضع لمبدأ الآلية في العلمية فهي ظواهر غائية، متغيرة باستمرار كيفية، لا يمكننا تكميمها إطلاقا، ومن ثمة؛ يصعب ضبطها والتحكم فيها على مقاس العلم التجريبي، لكن رغم ذلك حاول علماء التاريخ واقتداء بالمنهج التجريبي في علوم الفيزياء الطبيعية أن يؤسسوا منهجا استقرائيا يمكن من خلاله دراسة الواقعة التاريخية ويقوم هذا المنهج على أربع خطوات وهي:
أولا :العمل على جمع المادة التاريخية.
ثانيا :حصر الواقعة التاريخية المراد دراستها زمانا ومكانا.
ثالثا :الوصول إلى أحكام كلية يمكن الاستفادة منها في الحاضر والمستقبل.

.الواقعة التاريخية/مبدأ الحتمية وحدود التفسير السببي،

.1.3مبدأ الحتمية والواقعة التاريخية :إن مبدأ الحتمية التاريخية يقتضي أنّ نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج، بمعنى إذا توفرت نفس أسباب حدوث واقعة تاريخية معينة فإنها ستتكرر وبالشكل نفسه، لكن هل هذا المبدأ يمكن تحقيقه في الوقائع التاريخية المرتبطة في حدوثها بالإنسان؟ .

يعرف ادوارد كار مبدأ الحتمية بقوله" :الحتمية هي الإيمان بأن لكل حدث سببا أو أسبابا وانه ما كان أن يحدث بصورة مختلفة ما لم يتغير شيء في السبب أو الأسباب ."وهذا مطابق تماما لمبدأ الحتمية في العلوم التجريبية الذي مؤداه إذا تكررت نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج، لكن هل حقيقة يمكننا تطبيق مبدأ الحتمية في الوقائع التاريخية، مثل ما يمكننا تطبيقه في الظواهر الطبيعية؟.

يصعب تحديد إجابة مفصلية لهذا السؤال، لأن فلاسفة التاريخ انقسموا إلى قسمين، قسم منهم يرى بإمكانية تطبيق مبدأ الحتمية في الدراسات التاريخية، وهذا ما يذهب إليه معظم فلاسفة النزعة التاريخانّية، أما القسم الثاني فيرى بعدم إمكانية تطبيق هذا المبدأ العلمي في الوقائع التاريخية وهذا ما يذهب إليه كارل بوبر ، حيث يرى أن كل شيء متعلق بقضايا الإنسان يرفض مبدأ الحتمية بناء على ذلك إخضاع الوقائع التاريخية لمبدأ الحتمية غير ممكن جاء في قوله" :لقد حاولت أن أبين في مقالي' عقم التاريخانّية 'أن هذا المذهب عقيم– أي انه منهج لا يؤتي أي ثمار ."إذن كيف يمكننا تفسير حدوث الوقائع التاريخية؟.

يرى كارل بوبر أن الوقائع التاريخية الماضية تخضع لمبدأ الصدفة أو ما يعرف في فلسفة التاريخ 'بعامل الصدفة 'حيث أن الكثير من الأحداث والوقائع التاريخية لا نجد لا تفسير حتمي، وحتى تفسير سببي، غير أن هناك من فلاسفة التاريخ يربط عامل الصدفة بتقاطع مجموعة من الأسباب هو الذي يؤدي إلى وقوع واقعة تاريخية معينة، وهذا ما أشار إليه منتيسكيو في كتاباته خاصة في كتابه' أسباب عظمة الرمان وأسباب انحدارهم 'حيث حاول في هذا الكتاب أن يفسر قيام الحضارة الرومانية وأسباب أفولها

بتقاطع مجموعة من العوامل والأسباب ويضيف إلى مبدأ تقاطع الأسباب عامل استعداد الشعوب والدول للنهوض أو للانحدار والتخلف ومن ثم ذهاب مجدهم وملكهم و ذلك من خلال" المعطيات التاريخية المقدمة"، وهذا ما يسميه مالك بن نبي في مشروعه الحضاري' بالقابلية للاستعمار 'وهو مخيال عام نكوسي يتشكل لدى الشعوب نتيجة لظروف وعوامل سوسيو ثقافية واقتصادية تمر بها هذه الشعوب و تعود إلى زمن بعيد .يمكننا أن نستنتج ممّا سبق بأنه إذا أردنا تفسير وقوع واقعة تاريخية محددة لا يمكننا إرجاعها إلى سبب واحد حتمي، بل يجب أن نبحث في مجموعة من الأسباب تقاطعت صدفة أدت إلى حدوثها.

2.3.الواقعة التاريخية وحدود التفسير السببي :

يعتقد الكثير من فلاسفة التاريخ بأن هناك سبب نهائي وأساسي لحدوث أي واقعة تاريخية، لكن هل يمكن إرجاع وقوع هذه الأخيرة إلى سبب واحد أم إلى مجموعة من الأسباب ؟ .لا يمكننا تقديم إجابة واحدة لهذا السؤال لأنّه هناك اختلاف في الرؤى حيث يرجع ماركس حدوث الوقائع التاريخية إلى عوامل وأسباب اقتصادية، أمّا هيغل فيرجعها إلى مبدأ عقلي، في حين يرجعها البعض إلى عوامل دينية، أما اجيست كونت فيرجعها إلى أسباب وضعية اجتماعية، إذن كل فيلسوف والخلفية الفكرية التي ينطلق منها في تفسيره لأسباب حدوث الوقائع التاريخية، لكن هل يمكننا تغليب سبب على الآخر في تفسيرنا لحدوث هذه الوقائع التاريخية؟.

يرى الكثير من الدارسين لمسارات التاريخ بأنه يمكننا في حالات معينة تغليب سبب على آخر، لأن الوقائع التاريخية تختلف فيما بينها؛ لذلك كانت أسبابها تختلف هي الأخرى، لكن إذا أراد المؤرخ أن نفسر الواقعة التاريخية تفسيرا سببيا عليه أن يتخلى عن خلفيته الإيديولوجية والفكرية، ويحاول أن يبحث في الأسباب أو السبب الذي أدى إلى وقوع هذه الواقعة دون غيرها، هذا حتى يتسنى له بتفسير الواقعة تفسيرا موضوعيا يقترب إلى حد ما من التفسير العلمي.

إنّ المؤرخ في دراساته وكتاباته التاريخية لا يناقش مبدأ الحتمية آو حتى مبدأ السببية وإنما يناقش المسارات الكبرى التي تحدد الصيرورة التاريخية وتطورها، بمعنى أنّ غاية المؤرخ ليست هي البحث في مبدأ السببية كمبدأ علمي، وإنما غايته هي الوصول إلى أسباب معقولة التي جعلت من صانعي الأحداث التاريخية الكبرى أن يختاروا هذا الاختيار دون الآخر وما على المؤرخ إلاّ أن يعلق على تلك الاختيارات بأنها صحيحة أو خاطئة؛ ولذلك يقترح ادوارد كار عوض البحث في السبب الملتبس علينا أن نتحدث عن "التفسير أو التعليل أو منطق الموقف أو على المنطق الداخلي للأحداث"، يمكننا أن نستنتج من القول السابق أن ادوارد كار يدعونا إلى البحث في السبب والكيفية التي جرى عليها الحدث التاريخي.

يستند التفسير السببي في التاريخ إلى مسلمة عامة قوامها بان مسيرة حياة الشعوب وأحوالهم تخضع لنظام معقول، لمنطق داخلي لسير الأحداث، ولا شيء يحصل في التاريخ اعتباطا، كل مسارات التاريخ الكبرى مرتبطة بسبب أو أسباب وهذه الأخيرة معقولة، فالسببية في التاريخ هي محاولة الكشف عن المجموعة المركبة للأسباب وهي ليست أكثر من احتمال عقلي لوقوع الحدث التاريخي، وأن لا يكون ثمة سبب كاف لرفض هذا الاحتمال وإمكانية وجوده، إذن بدلا من التساؤل عن سبب وقوع حادثة تاريخية معينة، علينا أن نتساءل عن التفاعل الموجود بين مجموعة من الأسباب؛ التي أدت إلى وقوع هذه الأخيرة، علينا أن نبحث عن الضرورة السببية الموجودة بين هذه الأسباب والتي أدت إلى وقوع الحادثة التاريخية، بمعنى محاولة تفسير سببي لوقوع الحادث دون خلفية فلسفية مسبقة.

إن المؤرخ في تفسيره وتعليله لحدوث الوقائع التاريخية مهما حاول أن يربطها بسبب واحد فإنّه لا يتسنى له ذلك، لأن الواقعة التاريخية لا تعتنق مبدأ السببية اعتناقا كاملا، فالحادثة التاريخية مرتبطة في حدوثها بما سبقها وبالنتائج التي تنتج عن وقوعها.

إن المؤرخ في تفسيره للحادثة التاريخية، عليه أن يرتب جملة من الأسباب ويحدد لها نظاما ويحدد علاقاتها ببعضها البعض، و غاية المؤرخ من كل ذلك هو إدخال النظام والوحدة في فوضى الحوادث

والأسباب المؤدية إليها، غايته أن يوصلنا إلى معقولية الأحداث التي تخول لنا إمكانية البحث في مبدأ التعميم .لكن ما هي العوائق التي تواجه المؤرخ عند محاولته تفسير حدوث الواقعة التاريخية تفسيرا سببيا؟ .في حقيقة الأمر هناك جملة من الصعوبات التي تحد من التفسير السببي لحدوث الواقعة التاريخية يمكن تحديدها في ثلاثة عوائق وهي:

أولا :صعوبة التعبير الكمي عن الكيفي رغم أن العلوم الإنسانية الأخرى كعلم الاقتصاد وعلم الاجتماع حاولا التحرك نحو التعبير الكمي، لكن في علم التاريخ يصعب على المؤرخ أن يكمم النتائج التي يصل إليها، فليست هناك وحدة قياس نقيس بها حدوث الأحداث التاريخية الكبرى وعلاقتها ببعضها البعض.

ثانيا :صعوبة المزج في الدراسات التاريخية، بين الدراسة الساكنة والمتحركة، ففي كل المجالات تكون الدراسة دراسة ساكنة إلا في علم التاريخ فندركه متحركا، وهذا بطبيعة الحال راجع إلى صيرورة الأحداث التاريخية المتحركة دوما، بمعنى رغم أن الأحداث والوقائع التاريخية أحداث ووقائع ماضية إلا أن تأثيرها يبقى قائما، ومادام تأثيرا قائما، تبقى هي الأخرى قادرة على التغير؛ وبالتالي فهي في حركة مستمرة.

ثالثا :صعوبة التمييز بين الروابط السببية في وقائع التاريخ، والعلاقات الوظيفية البنائية، فهناك أسباب تدفع إلى حدوث شيء ما، فهذه الأسباب شيء وارد بعد أن كانت غير موجودة، وحين وجدت هذه الأخيرة أتت بشيء جديد الذي يعتبر متغير تاريخي، لكن علينا أن لا نخلط بين الروابط السببية والعلاقات الوظيفية والبنائية، فلا يهتم المؤرخ بمظاهر حياة الشعوب بقدر اهتمامه ببنية المجتمعات .لكن هل يمكن للمؤرخ أن يخضع الحوادث التاريخية لقوانين علمية مثل ما تخضع في ذلك ظواهر علوم الطبيعة؟.

قبل أن نجيب على هذا السؤال يجب علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن مفهوم العلم أوسع بكثير من مفهوم العلم الطبيعي؟ .فإذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار يمكن لنا أن نتحدث عن القانون العلمي في العلوم الإنسانية بشكل عام وفي علم التاريخ بشكل خاص، إن ظواهر العلم الطبيعي التي يهتم بدراستها لها خصائصها المميزة لها، تختلف في مجملها عن خصائص الوقائع التاريخية التي يتهم بدراستها علم التاريخ، إذن حتى تتضح لنا الرؤية بشكل جيد علينا بتعريف القانون العلمي، إذن ما هو القانون العلمي؟ . القانون العلمي في عمومه هو عبارة عن مجموعة صيغ رياضية تحكم علاقات الأحداث وتسمح لنا بالتحكم فيها وتكرارها ؟ .إذن بناء على تعريفنا السابق للقانون العلمي هل يمكن للمؤرخ أن يصل لقوانين تاريخية تصلح لجميع الوقائع التاريخية التي تحدث داخل المجتمعات؟.

يحدد' ادوارد بوتس تشيني(1861-1947) Edward Potts Cheyney 'م(، خمسة قوانين يقول عنها بأنها قوانين تاريخية وهي:

أولا :قانون الاستمرار والتعبير :مضمون هذا القانون بأن أي حدث أو واقعة تاريخية لا تنتهي بحدوثها، لكن تأثيرها يبقى فرغم انتهاء جرايانها إلا أنها تستمر في التأثير والتعبير عن نفسها.

ثانيا :قانون التكافل :معناه أن الأمة تنتهي أو تضمحل كوحدة ، فإذا نهضت نهضت كاملة وإذا أفلت أفلت كوحدة كلية، فلا يمكن أن ينهض جزء منها دون البقية، ولا يضمحل جزء منها دون بقية الأجزاء المكوّنة لها.

ثالثا :قانون الديمقراطية :مسار حياة المجتمعات يسير نحو الديمقراطية.

رابعا :قانون حرية الاختيار :الإنسان لا يلتزم التزاما حقيقيا إلاّ بما يشعر به في قرارات نفسه بأن هذا الشيء من اختياره.

خامسا :قانون التقدم الخلقي :المظاهر الأخلاقية تميل لأن تكون أقوى من المؤثرات المادية .غير أن هذه المعقولية في التاريخ في حقيقتها أكثر تواضعا منها في علوم الطبيعة،

أما ابن خلدون فقد وضع لنا قوانين أخرى للتاريخ منها ما هو نسبي ومنها ما هو كلي وذلك حول جدل التاريخ وأسباب قيام الدول في تماسكها وتدهورها وانهيارها ويمكننا أن نجملها في خمسة قوانين:

أولا :أسباب بروز الدول' العصبية 'ومن خصائص العصبية :الوحدة، فقد يموت الشخص من اجل عصبيته حتى يثبت مدى إخلاصه وانتماءه لها.
ثانيا :الاجتماع الإنساني يتطور من البداوة إلى التحضر، في سنة طبيعية دائمة' هذا القانون يصدق على الدول التي تقوم على أساس القبيلة فهو نسبي.'
ثالثا :الدول كالبشر، تنمو وتكبر ثم تضمحل، فتموت وتنتهي.
رابعا :الحضارات تتعاقب عليها أطوار، بداوة ثم حضارة ثم تفسخ أخلاقي، وتخلف اقتصادي ثم انهيار تام.
خامسا :العمران مرتبط بالمعاش' الاقتصادي 'فنمط المعاش هو الذي يحدد علاقات الناس فيما بينهم واختلاف الأجيال إنّما يكون في اختلاف نحلهم ومعاشهم.
عموما هذه القوانين هي تعليمات لا ترقى إلى مستوى القانون العلمي كما نفهمه رياضيا، فليس في القانون التاريخي اطراد لأسباب مادية أو معنوية فتؤدي حتما إلى حدوث الحدث التاريخي .

الخاتمة:

إنّ المهتم بفلسفة التاريخ يلاحظ بأن التاريخ ليس له تعريف واحد وإنّما يجد تعريفات كثيرة، وهذا راجع إلى صعوبة تعريف وتحديد ماهية علم التاريخ، والواقعة التي يقوم بدراساتها، والغاية منه، غير أنّه في الكثير من الأحيان تتقاطع هذه التعريفات بشكل ما قصدا أو صدفة حو ل تعريفه ومنهجه والهدف منه، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى قدم اهتمام الإنسان بالمعرفة التاريخية؛ حيث يعود فجر هذه المعرفة إلى الكتابات اليونانية القديمة، افرز كل هذا اختلاف فلاسفة التاريخ حول تصنيفه، فمنهم من صنفه ضمن الفنون ومنهم من صنفه ضمن العلوم،

تطرح العوائق التي تقف أمام المؤرخ في دراسته للوقائع التاريخية صعوبة جمة، أفرزت تباينا واضحا بين المشتغلين على فلسفة التاريخ، حول طبيعة المنهج في علم التاريخ، فمنهم من يرى أنّ الواقعة التاريخية لا يمكن إخضاعها للمنهج الاستقرائي؛ وبالتالي المنهج الوصفي هو المنهج الأنسب في دراستها ، مع التزام المؤرخ بطبيعة الحال بالموضعية في دراساته والابتعاد قدر الإمكان عن الذاتية، غير أن هذا يبدو صعب المنال، لأن الظاهرة التاريخية تأخذ أهميتها من تأويل وتعليل وتفسير المؤرخ لها، وهناك من يرى عكس ذلك، اقتداء بتطبيق علوم الطبيعة للمنهج التجريبي ونظرا للنتائج التي حققتها من خلال تطبيقها لهذا المنهج في دراستها لظواهرها الطبيعية، ارتأى بعض فلاسفة التاريخ، خاصة منهم التاريخانين على شاكلة' دلتاي 'و' ريكرت 'و' ماكس فيبر ' و' ريمون آرون ' بإمكانية تطبيق المنهج الاستقرائي في علم التاريخ؛ بمعنى أن حركة التاريخ حركة تخضع لمبدأ الحتمية، وبالتالي يمكن التنبؤ بحدوث وقائعها، وبذلك يمكن أن نصل إلى قوانين تاريخية يمكن تطبيقها على الوقائع التاريخية والتحكم في حدوثها، غير أنّ مكانية تطبيق القانون العلمي بمفهومه الصارم على الظواهر التاريخية يبقى متواضعا مقارنة بتطبيقه في علوم الطبيعة .

دفع ذلك بعض المهتمين بدراسة علم التاريخ إلى الاعتقاد بأنّ البحث في علم التاريخ ووقائعه يقتصر على التفسير السببي لا غير .غير أن الاتجاه التاريخاني في تفسيره وتعليله لحدوث الوقائع التاريخية وحتى القول بالتفسير السببي، لقي معارضة شديدة من قبل بعض المفكرين على غرار' كارل بوبر 'الذي يرى أن الظاهرة التاريخية لا تخضع في حدوثها لا للقانون العلمي ولا للتفسير السببي، وإنما تخضع لمبدأ الصدفة فقط.

المراجع:

-1أحمد محمود صبحي،(1975) ، *في فلسفة التاريخ*، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية.
-2إدوارد كار،2018) م(، *ما هو التاريخ*، ترجمة :ريهام عبد المعبود، عالم الأدب للبرمجيات والنشر والتوزيع، مصر.
-3ارنولد توينبي،1990) م(، *الفكر التاريخي عند الإغريق*، ترجمة :لمعي المطيعي، الهيئة العامة للكتاب، مصر.
-4أرنست كاسيرر،1997) م(، *في المعرفة التاريخية*، ترجمة :احمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر

-5إيزايا برلين،2012) م(، *جذور الرومانتيكية*، نقله إلى العربية :سعود السويدا، جداول للنشر والتوزيع، بيروت.
-6بنتراند راسل،) العدد رقم 72 ديسمبر1983 م(، *حكمة الغرب*،ج2، ترجمة :فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت .
-7جوزف هورس،1986) م(، *قيمة التاريخ*، ترجمة :نسيم نصر، منشورات عويدات، بيروت-باريس.
-8رأفت غنيمي الشيخ،1988-1987) م(، *فلسفة التاريخ*، دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة.
-9السخاوي،2017) م(، *الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ أهل التاريخ*، تحقيق :سالم بن غتر بن سالم الظفيري، دار الصميعي، السعودية .
-10عبد الرحمن بن خلدون،2001) م(، *مقدمة ابن خلدون*، ضبط المتن :خليل شحادة، مراجعة :سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.
-11عطيات أبو السعود،1997) م (، *فلسفة التاريخ عند فيكو*، منشأة المعارف، الإسكندرية.
-12كب،1981) م(، *علم التاريخ*، ترجمة :لجنة دائرة المعارف الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، لبنان.
-13كارل بوبر،1992) م(، بؤس الايدولوجيا، ترجمة :عبد الحميد صبره، دار الساقي، بيروت.
-14هرنشو،(1937) ، *علم التاريخ*، ترجمة :عبد الحميد العبادي، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، مصر.
15-Auguste Comte, *Cours de philosophie positive*, 2vols (Paris Hermann, 1975), vol 2 physique social Leçons.
16-Edmond 27.Husserl, *Méditation cartésiennes-Introduction a la phénoménologie*, Librairie philosophique, Paris 1966
17-Raymond Aron, *Les étapes de la pensé sociologique*, Edition Gallimard, Paris 1967.

المعاجم :

-1الفيروز آبادي،2005) م(، *القاموس المحيط*، مؤسسة الرسالة، بيروت .
-2الفيومي،1987)م(، *المصباح المنير*، مكتبة لبنان، لبنان.
-3جميل صليبا،1982) م(، *المعجم الفلسفي*،ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت
-4مجمع اللغة العربية،2004) م(، *المعجم الوسيط*، مكتبة الشروق الدولية، مصر .
-5مراد وهبة،2007) م(، *المعجم الفلسفي*، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة .